العصر العباسي الثاني

أو المائة الثانية من العصر العباسي الثاني
من سنة ٢٣٢–٣٣٤هـ

(١) تاريخه

يبدأ هذا العصر بخلافة المتوكل على الله العباسي سنة ٢٣٢هـ، وينتهي بظهور الدولة البويهية سنة ٣٣٤هـ، وقد يسمَّى العصر التركي لتسلط الأتراك فيه على أمور الدولة؛ تمييزًا له عن العصر الماضي وهو فارسي لتغلُّب العنصر الفارسي فيه. وأما الأتراك فأول من استكثر منهم وقدمهم في الدولة المعتصم،[١] وبدأ استبدادهم في أيام المتوكل على الله؛ لأنه كان يكره الشيعة العلوية، وهم من الفرس، فاستبد فيهم وزاد في رعاية الأتراك لينصروه عليهم، فزاد طمعهم في الدولة، ثم أغراهم ابنه المنتصر (أو هم أغروه) على قتله فقتلوه، وكان ذلك أول جرأتهم على الخلفاء، وولوا المنتصر بعده، ولم تطل مدة حكمه أكثر من بضعة أشهر فمات وضميره يخزه. وتولى بعده المستعين بالله سنة ٢٤٨هـ، ثم المعتز بالله سنة ٢٥١هـ، وقد استفحل أمر الأتراك استفحالًا عظيمًا، ومما يحكى عن استبدادهم في الخلفاء أنه لما تولى المعتز قعد خواصه وأحضروا المنجمين وقالوا لهم: «انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة.» وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال: «أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته.» فقالوا له: «فكم تقول إنه يعيش وكم يملك؟» قال: «مهما أراد الأتراك.» فلم يبق في المجلس إلا من ضحك.[٢]

وقد قتلوا المعتز هذا شر قتلة؛ فإنهم جروه برجله إلى باب الحجرة، وضربوه بالدبابيس، وخرقوا قميصه، وأقاموه في الشمس بالدار، فكان يرفع رجلًا ويضع أخرى لشدة الحر، وبعضهم يلطمه بيده،[٣] والمستكفي سملوا عينيه ثم حبسوه حتى مات في الحبس.[٤] وبلغ من فقر القاهر بالله أنهم حبسوه وهو ملتف بقطن جبة وفي رجله قبقاب خشب — فلا غرو إذا أصبح الخلفاء آلة في أيدي الأتراك، وإذا تنازع هؤلاء على السلطة كان الخليفة مع الغالب، وبعد أن كان القواد يحلفون للخليفة بالطاعة صار الخليفة يحلف لهم.

(٢) نفوذ الخدم في هذا العصر

وفي هذا العصر عظم نفوذ الخدم في الدولة العباسية ولم يكن لهم شأن قبله؛ وسبب ذلك أن الأتراك لما استبدوا وصاروا يولُّون الخلفاء ويعزلونهم كان في جملة ما استعانوا به على الاستبداد بهم أن يحجروا عليهم قبل الخلافة ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفًا، وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يميلون إلى حبس أولادهم وأقاربهم خوفًا من تواطئهم مع بعض الأتراك على خلعهم أو قتلهم، ولا عشير لهم في أثناء الحجر إلا الخدم والخصيان فألفوا أخلاقهم، وتحققوا بالاختبار أن حياتهم تتوقف بالأكثر على أمانة أولئك الخدم؛ لما آنسوه من غيرتهم عليهم، وخصوصًا الخصيان؛ إذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة أسيادهم، ولا مطمع لهم بالملك لأولادهم وأهلهم، فأصبح ولاة العهد إذا أفضت الخلافة إليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والإكرام؛ التماسًا لحمايتهم إذا أراد الأتراك الفتك بهم، فعمدوا إلى الاستكثار من الخدم، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في أمورهم.

واستكثروا منهم حتى أَلَّفوا منهم الفرق، وأول من استكثر منهم ورفع منزلتهم المقتدر بالله؛ فقد تولى سنة ٢٩٥هـ، وعنده من الخدم والخصيان ١١٠٠٠ خادم من الروم والسودان وكثير من المال والجوهر، فتمكن من الحكم ٢٥ سنة، وكان يقدم الخدم ويستعين بهم، وقد ولاهم قيادة الجند وغيرها، وفي أيامه نبغ مؤنس الخادم فقدمه وكان يستشيره في أموره، فتصرَّف مؤنس في مصالح الدولة كما يشاء، وتولى رئاسة الجيش وإمارة الأمراء وبيوت الأموال، واستبد في كل شيء، لكنه على الإجمال خدم الخليفة المقتدر خدمًا ذات بال، ثم كانت بينهما وحشة تكررت حتى أدت إلى حروب انتهت بقتل المقتدر.

فتكاثر الفساد بسبب ذلك، وعمَّت الرشوة والمصادرة والفتك؛ فأصبح الناس يخافون على أموالهم وأرواحهم؛ لأنها طوع إرادة الخليفة أو الوزير أو القائد، أو تابعة لهواهم ومطامعهم. وكانت المصادرة متبادلة بين الخليفة ووزرائه وقواده،[٥] ناهيك بالجاسوسية وسوء الأحكام؛ فآل ذلك إلى طمع العمال والولاة بأعمالهم؛ فأخذوا يستقلون؛ فتشعبت المملكة العباسية إلى إمارات وممالك، وانقضى العصر الذي نحن في صدده بدخول الديلم بغداد في أيام المستكفي سنة ٣٣٤هـ، وأنشئوا هناك دولة عرفت بدول آل بويه، وبها يبدأ العصر العباسي الثالث.

فالفساد الذي تقدم ذكره أثَّر في آداب اللغة، ولا سيما في الآداب التي هي من آثار النفس أو أعمالها كالشعر والخطابة والإنشاء، وقل النابغون فيها كما سترى، وفيه قيدت الأفكار بمطاردة المتوكل للمعتزلة والشيعة فضعفت الحرية، وعمد الناس إلى التستر بأفكارهم خوفًا على حياتهم، خلافًا لما كانوا عليه في أواخر العصر الماضي.

(٣) مميزات هذا العصر

ويمتاز العصر العباسي الثاني بالنظر إلى آداب اللغة بأمور تمت فيه، وهي:

(١) أنه فيه استقر الخط العربي على القاعدة التي وصلت إلينا، وقد وضعها أو ضبطها ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨هـ.

(٢) فيه ظهر أثر الانقلاب الأدبي في ألفاظ اللغة العربية، فتنوعت معاني بعضها حتى خرجت عما وضعت له في المعاجم، وشق ذلك على أدباء اللغة، فوضعوا المقالات أو الكتب في انتقاد ذلك وإصلاحه؛ ولكنه قلما أفاد؛ لأن ذلك التنوع حدث بطبيعة العمران، وممن انتقده ابن قتيبة في كتابه أدب الكاتب، وسنبين ذلك في مكانه — وراجع كتابنا تاريخ اللغة العربية صفحة ٣٧.

(٣) وفي هذا العصر ترجمت التوراة إلى اللغة العربية ترجمة لا تزال باقية إلى الآن، ويغلب على الظن أنها ترجمت كلها أو بعضها إلى اللغة العربية قبل الإسلام، وشاعت بين أدباء العرب وضاعت في صدر الإسلام، ثم ترجمت ترجمة أخرى في زمن المأمون على يد أحمد بن عبد الله بن سلام،[٦] ورأينا بعض أدباء ذلك العصر ينقلون عنها فصولًا من أخبار الخليقة،[٧] وربما ترجمها سواه أيضًا، ولم يبق من تلك الترجمات شيء إلى الآن، وأقدم ما وصل إلينا من ذلك ترجمة سعيد بن يعقوب الفيومي، ويقال له: سعديا.

سعيد الفيومي وترجمة التوراة

ولد سعيد هذا في الفيوم نحو سنة ٢٨٢هـ في ولاية خمارويه بن أحمد بن طولون على مصر، وكان إسرائيليًّا من الطائفة الربانية، وكان بين هذه الطائفة وطائفة القرائين مناظرة وجدال، وكان سعيد من كبار رجال الدين والعلم فيهم، فكتب كتبًا كثيرة جدلية في العبرانية، وأخيرًا ترجم كتب موسى الخمسة وسفري أشعيا وأيوب من الأصل العبراني للتوراة إلى العربية؛ توسيعًا لدائرة أحزابه الربانيين. وقد طبعت الأسفار الخمسة من ترجمته في الآستانة بالأحرف العبرانية سنة ١٥٤٦ مع ترجمات أخرى، وعرفت هذه الطبعة باسم «تتراغلوت»، ثم ظهرت في طبعة البوليغلوت بباريس بعد قرن، وطبعت ترجمته لأشعيا في جينا سنة ١٧٩١، وأما سفر أيوب فمنه نسخة خطية في مكتبة أكسفورد، وقد طبعت على حدة مع ترجمة فرنسوية بعناية ديرنبورج بباريس سنة ١٨٩٣.

هوامش

(١) راجع تفصيل ذلك في تاريخ التمدن الإسلامي صفحة ١٥٥ ج٤.
(٢) الفخري ٢٢٠.
(٣) ابن الأثير ٧٧ ج٧.
(٤) ابن الأثير ١٧٧ ج٨.
(٥) تاريخ التمدن الإسلامي ١٦٧ ج٤.
(٦) الفهرست ٢٢.
(٧) كتاب المعارف ٤.